

تعلين على :

« فائدة الأرباء »

للأستاذ علي الطنطاوي

—

هذه كلمة صغيرة من باب ما نشره الأستاذ المدن في « فائدة الأرباء » ، وما أفتى فيها ذلك (العالم الكبير) الذي أولع — غفر الله له — بتبرير كل ما تفعل العامة ، والاستدلال عليه ، والظاع منه ، ولو كان خطأ محضاً ، ولو كان ظاهراً فيه الخروج على مبدأ التوحيد الذي جاء به الإسلام تقياً وانحياً ، دأبه في ذلك دأب زميله الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله رحمة واسعة ، فإنه كان على علمه وأدبه يذب عن عقائد العامة ، ويسخر للدفاع عنها قلبه البليغ ، ويناضل عنها ويهجو العلماء المصلحين بالفصائد الطوال ، حتى إنه تناول على علامة للمصر السيد رشيد رضا ، وعلى شيخه من الجيل الجليل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنهما وسبب ذلك كله ابتغاء الحظوة عند العامة ، والرغبة في نيل احترامها وتقديرها ، وإلا فكيف يخفى على مثل الشيخ يوسف النبهاني والشيخ يوسف المدجوي ، وهما في سمة العلم ، وبلاغة القلم ، وحننة الخاطر ، أن الذي يدعو إليه السلفيون من لدن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ جمال القاسمي — أن الذي يدعو إليه إنما هو الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والخرافات ، وطرح الأحكام الاجتهادية التي لم يرد فيها نص ولم يبق إليها من حاجة ، وليس على شيء من ذلك رد ، ولا للجدال فيه مجال ؟

وكيف يخفى على عالم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنعه ما كان يقاسى من آلام المرض الذي قبض فيه من أن يبين أن الله لمن قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد — وأن المسلمين أمسوا اليوم ، وما مسجد من مساجد إلا وفيه قبر أو أقيم على قبر ، وأكثر هذه القبور لم تصح نمبته إلى صاحبه . هذا مسجد دمشق الكبير ، من يستطيع أن يثبت أن القبر الذي فيه هو قبر سيدنا يحيى عليه السلام ، وقبر سيدنا الحسين في القاهرة من يثبت أنه

١٥ ١٤

فيه مع أن رأسه في المشهد المعروف باسمه في مسجد دمشق وجسده في كربلاء ؟ وكيف يكون في بيروت مقام سيدنا يحيى وليس في هذا المقام قبر ولا شبهه ؟ ولستكنهم كرهوا أن يكونوا بمنجاة من مخالفة الحديث ، فأقاموا هذا المقام على غير شيء وما للفرق بين وجود القبر وعدمه ونحن نعتقد أنه لا يضر ولا ينفع ؟ وكيف يخفى على عالم أن في الحديث الصحيح الذي رواه علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره ألا يدع صنماً إلا كسره ، ولا قبراً مشرقاً إلا سواه بالأرض ؟ فما بالهم أحرم للناس على تشييد القبور وتعظيمها والوقوف بأعتابها ؟ وهل يفعلون ذلك إلا استرضاء للعامة وابتغاء الحظوة عندها ؟ فأين إذن أمانة العلم وكرامة العالم ، وأين إرث الرسول ؟

وأغرب من ذلك وأبغضه عن الخلق أن من العلماء من يستدل على الخرافة بأحاديث لا أصل لها لرضاء للعامة . حدث من أساييح أن قدم دمشق عالم تركي من علماء اسكندرون ، فدخل المسجد فرأى حلقة نبيلة يجلس فيها ، وكان المدرس من علماء دمشق المدودين الذين يقرؤون بين المشائين ، قسمه يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم يخرج كل ليلة من قبره بلحمه ودمه فيدور دورة في الأرض يرى فيها كل شيء ثم يعود إلى قبره . فقال له الشيخ التركي : من أين جئت بهذا ؟ فأظهر المدرس للنصب وصرخ : أئله يقال من أين ؟ إذا شئت أن تتعلم فتعال إلى في داري أهلك . فجاءه في داره ، فبحث وتقب ثم أتاه بحديث ليس له سند معروف . فقال له : هذا حديث موضوع ، فقال المدرس : لا بل هو صحيح ، وصرفه من داره . فلما كان اللند دخل للشيخ التركي المسجد ومعه طائفة من الكتبة المتبرة التي تنص على أنه حديث موضوع ، فكان جواب الشيخ أن صرخ : نحن ما عندنا وهابية . . . نحن ما عندنا وهابية . . . نحن ما عندنا وهابية . . . نحن من أجهاء الرسول . وكرر ذلك حتى جمع عليه العامة فكادوا يبطشون به

وأشد غرابة من هذه القصة ما أسمه كل جمعة على كثير من منابر دمشق ، من التصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم حي في قبره . وما أدري كيف يكون حياً في قبره والحى عندنا هو الذي يأكل ويشرب ويتنفس ؟ فهل هو صلى الله عليه وسلم حي في قبره بهذا المعنى ؟ وإذا كان حياً فكيف نعتقد أنه مات سنة كذا ، وكيف قام من بطنه أبو بكر وعمر ومئات الخلفاء ؟ وإذا

ثبت أنه قد عاش كما يعيش الناس ومات كما يموتون فكيف يكون حياً في قبره إلا أن تكون حياة روحية برزخية لا تفهم ما هي؟ ولا ندرك شأنها بحياتنا الأرضية؟

أما إنه لا بد من تصحيح عقيدة المسلمين بالنبي صلى الله عليه وسلم . والصحيح أنه ليس بشراً كسائر البشر أو فيلسوفاً أو مصلحاً خصب ، كما يريد أن يصوره بعض المستشرقين وأذيالهم من الملاحدة الذين تخرجوا على أيديهم بظواهر متكررين للوحى ، لا يرون فرقاً بين النبي وبين العلماء المسلحين ، ويؤمنون أن الإسلام إنما خرج من رأس محمد وقلبه

وليس فوق للبشر ، كما يتصوره بعض المسلمين القائلين بخرافة حياته في قبره ، وعلمه بكل شيء ، وقدرته بمد موته على النفع والضرر

ولكنه بشر مثلنا بنص القرآن ، وإنما يمتاز بالعصمة والوحى ، وقيامه بالتبليغ عن الله ، وقد انقطع الوحى والتبليغ بموته ، فن ادعى أنه رأى صلى الله عليه وسلم في نومه فأمره بكذا أو نهاه عن كذا ، يكون إما مجنوناً أو معتقداً نقص الشريعة ، أو متلاعباً بالدين ... ومن حسب أنه يمدحه بمثل قوله :

يا أكرم الرسل مالى من أؤذبه سواك عند حلول الحادث للمم فهو على ضلال ، لأنه يمدحه بما يهدم التوحيد من أساسه . وإذا كان كفار قريش الذين سماهم الله مشركين وأوجب قتالهم ، يدهون الله مخلصين إذا ركبوا في الفلك ، ورأوا الشدة ، فإذا يكون هذا الرجل الذى يحمي به الحادث المم فلا يجد من يلذ به إلا الرسول ؟ وينسى الله ؟ ونحن نعلم أن النفي والاستثناء من طرق القصر ولذلك كانت كلمة التوحيد لا إله إلا الله ؟

وماذا تقول للعلماء الذين يفهمون هذا الأمر الواضح ، ثم يقرؤون هذا البيت ويتواجدون عند سماعه لأن العامة تمتد به وتقده ؟

ولماذا تقول للعلماء الذين يحضرون الموائد وأشباهاها فيسمعون المنقذ ينزل بالرسول ، ويذكر الوصال ، أى والله ، واليمين والقسم وهاتيك الوقاحات ، ويسكتون خوفاً من العامة ؟

والذين يجلسون في حفلات الرقص التى تسمى ذكراً ، ولا ينكرونها وهم يعرفون بطلانها خوفاً من العامة ؟

يا ساداتنا العلماء الأعلام ، إننا لا نحتاج إلى علم ، فإن عندكم

منه ما يزيد على الحاجة ، ولكننا نحتاج (ولا مؤاخذه) إلى إخلاص وإلى جرأة ، وإلى تحرر من التمسك بجاهير الناس ، ونخلص من الخضوع للعامة ، فإذا وصلتم إلى ذلك لم نختلف ولم نتجادل ، لأن المسألة ترد إلى الدليل وأنتم أعرف به منا

إننا نشكو أموراً كثيرة ، وأنتم تعرفون دواها ولكنكم تخافون العامة ...

منها العقيدة بالقبور ، وسؤال أهلها ، والتوجه إليها ، وهى عقيدة لا يعرفها الإسلام ، بل يعرفها اليونان الأقدمون ويسمونها عبادة الأبطال . ومن شاء فليرجع إلى كتاب تاريخ الحضارة لشارل سينوبوس الذى عبره أستاذنا كرد على بك وليقابل بين العقيدتين وليقل لى : أما هما من جنس واحد ؟

ومنها مسألة السفور ، هذه المسألة الاجتماعية الخطرة ، التى تمد من الأدواء المفضلة ، والعلماء واقفون منها شر موقف ، ويان ذلك أن النساء يعشن نحو السفور بل المحمور والتهتك واللعناء ما كتون لا يبالغون المسألة ولا يحسنون علاجها ، فإن تصدى لها مصلح فأحب أن يجد لها دواء ، كالسفور الشرعى المحتم مثلاً - فأروا عليه العامة ، وخطبوا به على المنابر ، واتهموه بأنه سفورى مفسد ، فإذا كف عن بعثه الإصلاحى

طدوا إلى نومهم وتركوا حول التهتك على غاربه ... فلام يصلحون ولا هم يتركون الناس يصلحون ، وأظنهم لا يفكرون فى الإصلاح تفكيراً جدياً ، وإنما يبتغون الخطوة عند العامة

ومنها مسألة الطرق الصوفية وما فيها من منكرات ومنها خرافات للتصوفة وضلالاتهم كالتقول بوحدة الوجود ، والتطبانية ، وأهل الديوان

ومنها مسألة للذاهب الفقهية والاجتهاد ، والكلام فيها يحتاج إلى فصل بل إلى فصول طوال

ومنها الرد على الشبه التى يوردها المستشرقون وأمثالهم فمن لهذه المسائل إلا أنتم يا ساداتنا العلماء ؟ من يعالجها ؟ من يدرسها ؟ وكيف تدرسونها وأنتم تحرصون على رضا العامة أكثر من حرصكم على الحقيقة ؟

هذه هى المسألة بأبها الأستاذ المذنب ، ليست محصورة فى فائدة الأرباء ولا فائدة الخجس ! فصل إخوانك علماء الأزهر ما هو جوابهم عليها وقل لى ، ولك الشكر وعليك السلام .

على الطنطارى